

سيل سياسي في السودان يهدد بجرف الصوفية بعيدا

التيار الصوفي في مواجهة نزعة تنحو صوب الفردانية



شكلت الصوفية في السودان حالة خاصة مقارنة بنظيراتها في باقي الأقطار العربية، من خلال خوضها في العمل السياسي منذ سطوع نجمها، وكان لزعاماتها إسهامات بارزة لاسيما في المنعطفات التاريخية التي عرفها السودان وأخرها ثورة ديسمبر 2018. هذه الحالة تقود إلى البحث في توقع هذه الطائفة ما بعد الرئيس عمر حسن البشير خصوصا مع حالة السبوتة السياسية التي يشهدها هذا البلد وعودة المنظومة القديمة للحرك وتكثيف ضغوطها على السلطة القائمة.

صابرة دوح
كاتبة تونسية

طوى السودان صفحة الرئيس عمر البشير لكنه لا يزال يصارع لتفكيك المنظومة القديمة المتغلغلة في مفاصل الدولة، وتعمل على استغلال ارتباك السلطة الانتقالية، المشكلة من تحالف العسكر والمدينين من خلال اللعب على وتر التناقضات بين الطرفين، والتحديات التي تواجه كليهما لاسيما على الصعيد الاقتصادي، في ظل استمرار التصدع بين المركز والهامش الذي لا يمكن جبره دون أن يتحقق السلام الشامل بما يعنيه ذلك التخلي عن "وهم" تفوق ثنائية "الإسلام والعروبة" على باقي الأعراف والأديان والإثنيات في ربوع السودان.

المعركة التي يخوضها هذا البلد ليست سهلة خصوصا وأن القوى الإسلامية الحاضرة للمنظومة السابقة بدأت ماكنتها في التعافي في ظل ما تحظى به من دعم وإسناد قوي من أطراف إقليمية، وهي تتحرك اليوم على أكثر من مستوى إلى جانب محاولات العزف على الوترين الطائفي والعرق في الهامش، تحاول لفت الأنظار إليها في المركز عبر تحركات احتجاجية تستمر في الأزمة الاقتصادية.

سليمان سري
لبد أن يكون للطرق
الصوفية دور فاعل في
المرحلة الانتقالية

تثير إمكانية نجاح القوى الإسلامية بجناحيها الإخواني والسلفي مخاوف السودانيين بالنظر إلى تاريخ البلاد الحافل بمثل هذه الردات والانتكاسات، وتدفع هذه الهواجس إلى قناعة بضرورة استعادة النسق الثوري والتفاف جميع المكونات حول دعم المسار الانتقالي، التي بدأ جزء منها على غرار التيار الصوفي، شبيه مغيب ويتعاطى من منظور أن مهمته انتهت بسقوط البشير، وأن الكرة اليوم في ملعب "القادة الجدد".

إعلاء الفرد على الطائفة

بوجه جزء من الانتصار أصابع الاتهام لبعض الأحزاب المشكلة لتحالف قوى الحرية والتغيير في مساعي تغيب التيار الصوفي وركنه على الهامش. هذه الاتهامات لا تخلو من وجهة نظر باعتبار أن جزء من النخب السودانية التي صعدت إلى السطحة الرئيسية في ضعف السودان وتراجع دوره الحضاري يكمن في ارتهاها للعصبية العرقية والدينية، وهناك نوع من الحساسية لدى بعضهم حيال التعاطي مع أي طائفة أو تيار ديني بما في ذلك الصوفية رغم المعروف عنها اعتدالها ووسطيتها.

لا تخفي مجموعة من النخب السودانية من داخل السلطة أو من خارجها هذه القناعات وهي تطالب بضرورة الرهان على الفرد كاساس لأي عملية بناء وليس على أي جماعة أو طائفة أو قبيلة أو إثنية. وقد تكون هذه النزاعات أحد الأسباب الضمنية خلف ما يتعرض له حزب الأمة القومي -الذي يعد واجهة سياسية لطائفة الأنصار- من محاولات لتهميشه داخل ائتلاف قوى الحرية والتغيير، الأمر الذي دفع رئيسه الصادق المهدي في أبريل الماضي إلى الانتفاض وتجميد عضوية حزبه مؤقتا في التحالف المدني الشريك في السلطة الانتقالية.

وسبقت هذه الخطوة مواقف لا تخلو من حدة اطلقها حزب الأمة تجاه شركاء في الائتلاف المدني مصوبا أساسا على الجناح اليساري، ومطالبنا بضرورة إعادة هيكلة التحالف. ويخشى كثيرون من أن يذهب الحزب وزعيمه الصادق المهدي بعيدا في مواجهة عملية تهميشه كان يسعى لفتح قنوات تواصل مع المنظومة القديمة بتمثلاتها الأمنية والإدارية و لاسيما الحزبية والسياسية على غرار حزب المؤتمر الوطني وحزب المؤتمر الشعبي وغيرهما.

ولعل ما يعزز هذه المخاوف المبادرة التي طرحها زعيم طائفة الأنصار مؤخرا حول ما يسمى بالعدالة الترميمية والتي قال إنها يجب أن تطبق على من كانوا مع البشير ثم انحازوا إلى الثورة بما يشمل ذلك المطلوبين جنائيا.

وأثارت تلك المبادرة ضجة كبيرة حتى أن البعض اتهمه بأنه بات يمثل الوجه الناعم للمنظومة القديمة وأنه يسعى لانتشالها لعله تساعده في استعادة شيء من مكانته التي فقدها ولما لا العودة إلى سدة الحكم التي سبق وبلغها خلال فترتين زمنيتين 1967 - 1969 و 1986 - 1989، وانتهت كل منها بانقلاب آخره ذلك الذي جرى على يد البشير.

«الأمة» بين السياسة والطائفة

تبقى الأطراف الساعية لتحديد القوى الممثلة للتيار الصوفي على غرار الأمة القومي أقلية حيث أن الغالبية الموجودة في السلطة وعلى رأسهم رئيس الوزراء عبدالله حمدوك تترك الحاجة لاستنهاض طاقت كل المكونات بما يشمل المكونات الصوفية لإنجاح المرحلة الانتقالية التي تعد حاسمة حيث سترسم مستقبل هذا البلد على مدى العقود القادمة.

كما أن عملية اختزال تمثيلية التيار الصوفي العريض في حزب الأمة القومي تجانب الكثير من الصواب ذلك أن الأخير يخوض صراعاته في غالب الأحيان من منطلقات سياسية وليس طائفية، ولئن يحاول الحزب العريق في الساحة السودانية إلقاء مسؤولية تراجعها على الطرف المقابل لكنه في واقع الأمر يتحمل الجانب الأكبر من تلك المسؤولية

ويعتبر سري أنه يجب التمعن في تجربة البشير مع التيار الصوفي حيث عمل خلال فترة تواجده في السلطة على استمالة الطرق الصوفية بما يتمتعون به من قدرة فائقة في التأثير على أتباعهم عبر فرض الولاء والطاعة، وقد دفعهم نحو الانخراط في كباتات سياسية ثم تمكن في ما بعد من جعل جزء مهم منهم يقفون في صفه.

وعلى خلاف التيارات الصوفية المعروف عنها انطوائها وزهداها في معظم الأقطار العربية، فإن الصوفية في السودان تشكل حالة خاصة منذ انتشراها في هذا البلد في عهد دولة سنار (1504 - 1821)، ولطالما كانت في قلب المعادلة السياسية وشكلت زعاماتها أحد المؤثرات الرئيسية في المشهد السوداني قديما وحديثا. تقول بعض الدراسات إن نحو 70 في المئة من السودانيين صوفيون بالفطرة أي أنهم يشكلون خزانا مهما على السلطة الحالية ضمان تاييدهم وإلا فإنها ستجد نفسها في وضع

لجهة حالة "الترهل التنظيمي" التي بلغها وتذبذب سياساته في السنوات الأخيرة. ويقول المتحدث باسم التحالف العربي من أجل السودان سليمان سري لـ "العرب" إن حزب الأمة القومي يشكل قاعدة للكثير من شيوخ الصوفية لكنه ينحى الأبعاد الطائفية المرتبطة بالصوفية لصالح اتخاذ مواقف سياسية تحقق مصالحه العليا، ولعل ذلك ما جعله يشن حملة ضد رئيس مركز تطوير المناهج عمر القراري، الذي يسعى لتغيير جميع المناهج المتطرفة واستبدالها بأخرى تنتشر الثقافة الصوفية الوسيطة.

ويتمتع سري في ذلك ما جعله يشن حملة ضد رئيس مركز تطوير المناهج عمر القراري، الذي يسعى لتغيير جميع المناهج المتطرفة واستبدالها بأخرى تنتشر الثقافة الصوفية الوسيطة.

ويعتبر سري أنه يجب التمعن في تجربة البشير مع التيار الصوفي حيث عمل خلال فترة تواجده في السلطة على استمالة الطرق الصوفية بما يتمتعون به من قدرة فائقة في التأثير على أتباعهم عبر فرض الولاء والطاعة، وقد دفعهم نحو الانخراط في كباتات سياسية ثم تمكن في ما بعد من جعل جزء مهم منهم يقفون في صفه.

ويعتبر سري أنه يجب التمعن في تجربة البشير مع التيار الصوفي حيث عمل خلال فترة تواجده في السلطة على استمالة الطرق الصوفية بما يتمتعون به من قدرة فائقة في التأثير على أتباعهم عبر فرض الولاء والطاعة، وقد دفعهم نحو الانخراط في كباتات سياسية ثم تمكن في ما بعد من جعل جزء مهم منهم يقفون في صفه.

ويعتبر سري أنه يجب التمعن في تجربة البشير مع التيار الصوفي حيث عمل خلال فترة تواجده في السلطة على استمالة الطرق الصوفية بما يتمتعون به من قدرة فائقة في التأثير على أتباعهم عبر فرض الولاء والطاعة، وقد دفعهم نحو الانخراط في كباتات سياسية ثم تمكن في ما بعد من جعل جزء مهم منهم يقفون في صفه.

الصوفية ركيزة أساسية في المعادلة السودانية

صعب في ظل وجود قوى إسلامية لا تخلو سياساتها من براغماتية سيكون من صالحها فتح صفحة جديدة مع هذه الطائفة وكسب ودها في معركة استعادة السلطة.

جزء من النخب السودانية التي صعدت إلى السلطة لديها اعتقاد راسخ بأن أحد الأسباب الرئيسية في ضعف السودان وهوانه وتراجع دوره الحضاري يكمن في ارتهاها للعصبية العرقية والدينية

ويقول المتحدث باسم التحالف العربي من أجل السودان لبد أن يكون للطرق الصوفية المنتشرة في ربوع السودان دور فاعل في المرحلة الانتقالية، لاسيما في مواجهة الخطابات المتطرفة لتنظيم الإخوان، الذي ما انفك يحاول الوقيعة بين مكونات المجتمع لأفئال المرحلة الانتقالية، وعاد ليستتبنا مجددا لغة التكفير.

ويضيف سري أن "خطط تطوير الإعلام في السودان يجب أن تأخذ في الاعتبار إفساح المجال أمام القيادات الصوفية لاسيما المسيحية منها لتوجيه خطابات معتدلة إلى الجمهور، لتكون بديلا عن الجرعة الدينية التي جرى الإهتمام بها بما يخدم نظام البشير البائد، وأن ظهور شيوخ الطرق الصوفية الذين لديهم شعبية واسعة بين المواطنين سيكون من أجل دحض خطابات السلفية التي صدرها فلول البشير كبديل عن الوجوه التي لفظها الجمهور".

ويتوقع أن يكون للطرق الصوفية دور أكبر الفترة المقبلة، بعد أن اندمج عدد من الكيانات الصوفية الصغيرة داخل التجمع الاتحادي الديمقراطي الذي لديه تواجد فاعل في داخل تحالف قوى الحرية والتغيير، والملاحظ أن خطاباته أضحت أكثر وسطية وأقل صداما مع تيارات علمانية كالت لها العداء، وقد يهدد هذا الاعتدال لدور أكبر في مواجهة الحركة الإسلامية.

